الفصـل الأول

الطبيـعة

يحكى ابن بطوطة قصة صديق له ، ضل طريقه فى جبل حراء ، فاشتد عليه الحـر ونفد ما عنده من ماء وزاد ، فلجأ إلى حجر كبير واستظل بظله ، وأقـام على هذه الحال من الجهد والعطش ، والغربان تطير فوق رأسه تنتظر موته . فلما أتى المساء « وجد فى نفسه قوة وأنعشه برد الليل » ، فقام عند الصباح على قدميه ، ونزل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس ، ولم يزل ماشيا حتى بدت له خيمة للعرب فقصـدها ، وما أن وصـل إليها حتى سـقط على الأرض ولم يسـتطع النهوض ، فسقته صاحبة الخيمة مما كان عنـدها من ماء ، ثم حمله زوجها إلى مكة « فوصلها عند العصر من اليوم الثانى متغيرا كأنه قام من قبر »[1] على حـد قـوله .

ويصف « ثيسيغر » رحلته فى صحراء العرب فيقول « وقد مشيت وراء مجرى للمياه ، متشوقا لأرى ما يقع بعده ، فوجدت نفسى واقفا بين عالمين : إلى جهة الجنوب كانت سهول خضر حيث ترعى المواشى ، نباتات وأشجار ممتدة ، بينما على مرمى حجر من الشمال ، كانت هناك صحراء قاحلة من رمال وصخور وبعض بقايا العشب الذابل ، وكان التغير مفاجئا ، كما هو بين السهول الخصبة ، والصحراء فى وادى النيل » [2] .

نبدأ من هذا الوصف لجغرافى قديم ولرحالة حديث ، فاذا بنا أمام شخص قد اشتد عليه الحر ونفد ما عنده من ماء وشارف على حد الموت ، ولكن برد المساء ينعشه ويرد عليه الحياة ... وإذا بنا أمام لوحة تتجاور فيها الحياة والموت ، هناك

---

(١) مهـذب رحلة ابن بطوطة ١١٧/١ وقد ولـد ابن بطوطة فى طنجة سـنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤ م) وتوفى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٧ م) .

(٢) رمال العرب ص ٤٨ .

على جانب سهول خضر ونباتات وأشجار ، وهناك على الجانب الآخر صحراء قاحلة ورمال وصخور .

وهنا نصل لهذا الاستنتاج وهو : أن المحتوى الجغرافى للبلاد العربية يقدم الشيئين متجاورين :

١ - يرتفع النهار وتصلب الشمس فى كبد السماء ، ويفور التنور ، وتسجر البحار ، وتتلىء الأرض نارا ، وتنشف الحلوق ، وتحتك حبات الرمل ، وتفوح رائحة العرق ، وتنز الصدور ، وتكاد تتفجر الشرايين دماء حارة ، تسد الأفق وتحيله إلى حمرة تملأ كل مكان ، وتهيب بالعربى أن اقتل ، اشتد فى ضراوتك ، كن عنيفا كتلك الشمس ، اطعن كل من يقابلك ، لا وقت للتفكير ، ولا قدرة على اعمال الذهن ، انك تستجيب لنداء الطبيعة ، ولتلك الدماء التى تركض كأنها أعصار ، أو كأنها كميت امرىء القيس ، الذى يجيش غليانا ويكر ويفر فى وقت واحد .

ولكن صبرا ، ان هناك نقطة تتراءى من بعيد ، انها خيمة ، وها هى حسناء عند بابها ، وتقدم للعربى ماء باردا يعيد إليه الحياة ، وقد تحدث بينهما قصة حب من النظرة الأولى ، يتحدث عنها الركبان ، ويحكون قصة « قيس » وقد اشتد عليه العطش ، حتى خرجت إليه من خيمتها « لبنى » فسقته ماء وأشعلت فى قلبه الحب[1] . وقد تكون هذه الحسناء جارية « أحسن ما تكون كأنها قضيب ينثنى وسناء العينين مهفهفة الخصر حاسرة الرأس »[2] كما يقول الحسين الخليع .

وقد يسفر الأمر عن واد ، يجد الركب عنده الظل والماء والراحة ، يقول أبو زيد الطائى « اخروط بنا المسير فى حمارة القيظ ، حتى إذا عصبت الأفواه وذبلت الشفاه وسالت المياه واذكت الجوزاء المغراء وذاب الصيخد وصر الجندب وضايق العصفور الضب فى وجاره ، قال قائلنا : أيها الركب غوروا بنا فى مروج هذا الوادى ، فإذا واد كثير الدغل ، دائم الغلل ، شجراؤه مغنة ، واطياره مرنة ، فحططنا رحالنا بأصول دوحات كنبهلات ، فأصبنا من فضلات المزاود ، واتبعناها بالماء البارد »[3] .

(١) تزيين الأسواق ١/٥٣ .
(٢) المحاسن والاضداد ص ٢٢٦ .
(٣) المحاسن والاضداد ص ٧٤ .

وقد لا يكون هناك خيمة ولا واد ، ولكن ما أسهل أن يصطنع العربى له ظلا وسط هذا الهجير ، ويصبح هناك الشيء ونقيضه ، الحرارة والشمس من كل جانب ، وهو قد جلس فى ظل تحت ستار ، ويقبل عليه الهواء الجاف من كل جانب « قيل لأعرابى كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله ؟ فقال : وهل العيش إلا ذلك ؟ يمضى أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان ، ثم ينصب عصاه ويلقى عليها كساه ، وتقبل الرياح من كل جانب كأنه ايوان كسرى »[1] .

وتزول الشمس عن كبد السماء ، وتتحرك الظلال تحت الأقدام ، وإذا بخطوط سود تفترش الرمال ، ويتباين اللون الأسود مع الأبيض ، إن الظلال تتحرك تحت القيعان والكثبان ، وكأنها جان هبت من رقدتها ، أو عملاق ينفض عنه آثار الموت .

وتمتد الظلال وتطول فوق الرمال والجبال ، انه الليل يأتى بأسراره ورؤاه ، وها هو النسيم يقبل فيداعب الأنوف ، ويستل السخيمة من الصدور ، وكأنه يعتذر للعربى عن عنفوان النهار وقسوته . وما أسهل أن يتسامح العربى ، انه لا يستطيع أمام ريح الخزامى ونسيم الصبا أن يحتفظ بغله كثيرا ، لقد كاد يصبح قاتلا فى منتصف النهار ، ولكن كل هذا قد زال مع زوال الشمس ، وتتحرك فى نفسه الآن مشاعر جديدة ، انه يريد أن يغنى ، أن يسبح بحمد الله ، أن يحدو الركبان ، أن يرتفع إلى السماء ، أن يعانق النجوم ، أن يطير مع الكروان ، ان صدره يتسع للكون كله ، لقد أصبح شاعرا وقديسا ، بعد أن كان قاتلا وسفاحا .

تلك هى لوحة وقد تجاور فيها الليل والنهار ، الحر والبرد ، الأبيض والأسود ، الوضوح والسر ، الحقد والشعر ، القتل والتسامح ، الغل والحب ، الشمس والظل . إنها أشياء تتجاور ولا تختلط ، لا أدغال ولا غابات ولا أشجار كثيفة ولا ظلال عميقة والشمس تكشف كل شيء ، والبدر يفضح كل ستر ، والإنسان العربي يعيش التجربة - فى كلتا الحالتين - بعمق وحتى المنتهى . انه يصبح قاتلا وسفاحا وليكن ما يكون ، ثم يصير شاعرا وفنانا ولا شيء بعد ذلك .

***

(١) المحاسن والاضداد ص ٧٨ .

٢ - ولكن الليل قد يأتى بأخطاره ، وقد تزحف كتائب الظلام فتحيط بالعربى من كل جانب ، انه يتضاءل أمامها ويحس بالجبن ، إنه يخشى مخاطر الطريق ، يخشى من يترصد له فى هذا الجانب يفجؤه على غرة : ربما يكون وحشا ، ربما يكون عدوا ، ربما يكون قاطع طريق ، انه الموت على كل حال ، ان كتب الأدب العربي مليئة بحكايات الجبن والخوف ، والحديث عن هذا الجانب فيه نفاذ ودقة الشخص الذى يعيش التجربة ، انها الصحراء فى رهبوتها تجعل هجرس لا تنام إلا والحجر فى يدها مخافة الذئب ، وتجعل صافر يصفر الليل كله مخافة أن ينام فيؤخذ على غرة[1] ، وتجعل الذئب يغمض عينا ويفتح الأخرى ، وتجعل العربى يفر من الوحدة ، ويبحث عن أنيس ومسامر ، خذ الرفيق قبل الطريق ، وإذا لم يجد من يحدثه فليحدث ناقته ، أو ليجرد من نفسه شخصا آخر يلتفت إليه ويخاطبه .

ان الشعر العربى ملىء بصور الخوف والاحساس بالضآلة أمام مظاهر الطبيعة والليل بنوع خاص . ولم أقرأ لمثل النابغة[2] فى تصويره لهذا الشعور الذى يسيطر عليه ، ويجعل معلقته تنحل فى النهاية الى صور شتى ، عن قوى يستبد بشىء ضعيف ، كما يسيطر سليمان على الجن ، وكما يجعل الفرس الكلب « واشق » خائفا مرعوبا ، وكما يجعل الشؤبوب ذو البرد الطير يهرب ، وكما يزعج زئير الأسد الإنسان فى الغابة ، ان وصفه لليل حين يقبل ويحيط به وكأنه خطاف معروج لا مهرب منه ، أو وصفه للملاح وهو يجاهد البحر والعواصف ويتشبث بذنب السفينة ، إن كل هذا يعكس إحساس قويا وصادقا بالمظاهر الجبارة فى الطبيعة ، وبالليل بنوع خاص .

والعلاقة بين البحر والصحراء قوية ، وهى التى جعلت العربى قادرا على

---

(١) الهجرس : قرد . والصافر : طائر . وفى المثل العربى « أجبن من هجرس وأجبن من صافر » .

(٢) هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، أحد أشراف قبيلة ذبيان من القبائل المضرية ، وأحد فحول شعراء الجاهلية ، لقب بالنابغة لنبوغه فى الشعر فجأة وهو كبير ، ويعده كثير من أصحاب المعلقات ، وهو ممن تكسب بالشعر فى الجاهلية ، ولكنه آثر مدح الملوك ، ملوك المناذرة بالحيرة ، والغساسنة بالشام ، وكان قد مدح النعمان بن المنذر فقربه إليه ، ثم وشى به عنده وهم بقتله ، ففر إلى ملوك الشام فمدحهم ، ولم يحب مقامه بالشام ، فعاد يستعطف النعمان بقصائد تعد أروع شعره ، ولذلك كانوا يقولون « النابغة أشعر العرب إذا خاف » وطال عمر النابغة ، ومات قبيل الإسلام سنة ١٨ قبل الهجرة (٦٠٤ م) .

وصف البحر وأهواله بمقدرة ، دون أن نبحث عن علة هذه المقدرة فى أن العربى كان يسافر ويشاهد البحر ويركبه كما قال بعض النقاد ، فالعربى يعيش فى الصحراء وكأنه يعيش فوق البحر ، ان الصحراء تمتد كبحر خامد فى رمال متموجة كما يقول أبيشئين[١] ، ورياح السموم تجعل الرمال الناعمة تملأ الصحراء ، فيصبح كالبحر المزبد كما يقول ديفرچيه[٢] ، والقرآن الكريم يصف طبقات الظلمات كأنها بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج[٣] ، فالعربى اذن يعيش أهـــوال البحر وهو فى الصحراء ، ومن هنا كان قديرا على وصفها غاية القدرة .

ولكنه كبحار مغامر لا تجعله الأهوال ينزوى على نفسه فى حالة من الاحباط والسكون ، ان الأخطار تحيط به من كل جانب لو تشاغل عنها لأودت به ، انه سندباد الصحراء يعيش فى خطر وفى تحد للخطر فى الوقت نفسه ، فسرعان ما يهب على فرسه ، ويندفع كأنه اعصار ، ويوغل فى جوف الليل ، ويقابل الأخطار وجها لوجه ، انه يتحدى المخاوف بالحركة العنيفة ، وبالشجاعة التى تغطى على كل احساس بالخوف . ان الشعر العربى ملىء بأمثلة كثيرة - وكثيرة جدا - عن العربى الذى يركب أهوال الطريق ، ويغامر فى المفازة بناقته ، ان امرأ القيس تتحداه الطبيعة ، فيركب فرسا ، له اهتزام كغلى مرجل ، وحركة كخذروف الوليد ، تجعل الغلام الخف يزل عن صهواته ، ويندفع فى الصحراء وكأنه جلمود صخر حطه السيل من عل ، ثم يدخل فى معارك مع الحيوانات يحاورها ويداورها ، حتى يعود منتصرا فى نهاية الأمر[٤] . وطرفة بن العبد حين يناديه المنادى فى صحراء مخيفة

---

(١) الصحراء ص ٧٨ .

(٢) حضارة العرب ص ٥١

(٣) سورة النور آية ٤٠ .

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر الكندى ، ولد حوالي سنة ٥٠٠م ، أى قبل الأسلام بنحو ثمانين عاما ، أشهر شعراء الجاهلية وصاحب المعلقة المشهورة كان يميل إلى حياة اللهو والشرب والغزل فى النساء . وقد طرده أبوه ، فكان يسير فى العرب يطلب الصيد والغزل ويكثر من شعر الفتيان والشباب . ثم تألبت قبيلة بنى أسد على أبيه فقتلته ، وحين وصل الخبر إلى إمرىء القيس وهو فى لهوه وشرابه قال قولته الشهيرة « اليوم خمر وغدا أمر » . ثم تغير حاله وأخذ ينشد الشعر فى مقتل أبيه ، وفى تهديد قاتليه ، ثم جمع القبائل وسار نحو بنى أسد وقاتلهم قتالا شديدا ، وأكثر فيهم من القتل والجرح ويقال انه ذهب إلى قيصر الروم ، فأقام عنده ، حتى وشى الواشون بينهما وأشاعوا أنه يتعشق ابنة قيصر ، وينشد فيها الأشعار ، فدس إليه قيصر السم ، وتوفى حوالى سنة ٥٤٠م .

فإنه يركب ناقة كرأس الحية المتوقد ، وحين يحتضر الهم فى صدره فإنه يمضيه بعوجاء مرقال تروح وتعتدى[1] ، والحارث بن حلزة يستعين على همه بناقة زفوف كأنها هقلة[2] .

وتثير الصحراء صورا كثيرا من الرعب ، تتمثل فى الزلازل والبراكين التى تهدم كل شىء ، وفى الطوفان والسيول التى تغرق كل شىء ، وقد أظهرت الأحافير فى تلك البلاد « أنها كانت بلاد زلازل وأغوار وعوارض جوية يطابق ما وصفته الكتب الدينية »[3] ، ويتمثل الرعب بصورة عنيفة فى تلك الرياح التى تعقر كل شىء يقف أمامها ، وقد سمى البحارة الأمكنة الصحراوية « بخط عرض الخيل » ، ربما لأن الريح التى تهب عليهم من تلك الأمكنة « عنيفة وثقيلة فقد تهب أولا فى اتجاه ثم تتخذ اتجاها آخر كحصان وحشى »[4] ، ويتحدث « ديفرچيه » عن رياح السموم فى الصحراء الغربية فيقول « هنالك تنقبض صدور السياح ، وتحمر عيونهم ، وتجف شفاههم ، ويأخذون فى الهرب هم وجمالهم ، التى تعدو تارة ، وتقف أخرى لتطمر نحورها فى الرمل ، وتمرغ مناخيرها بالأرض ، وإذا ما استطاعت القافلة أن تحتمى وراء صخرة ، حتى تهدأ الزوبعة فانها تنجو ، ولكنها إذا تاهت وكانت بعيدة عن الملاجىء ، فان نشاطها ينفد ، وتفقد غريزة حب البقاء ، ويستولى عليها الثول والدوار ، وتعود غير قادرة على الفرار ، وتدفن تحت كثبان الرمل ، وتبقى مدفونة إلى أن تهب عاصفة أخرى وتكشف عن عظامها »[5] .

وقد تحدث القرآن الكريم كثيرا عن أمم عصت ، فسلط الله عليهم الظواهر الطبيعية ، فقوم لوط قد قلب ديارهم وجعل عاليها سافلها . وقوم هود سلط عليهم

---

(١) هو طرفة الكندى بن العبد البكرى ، أحد فحول شعراء الجاهلية ، ومن شعراء المعلقات ، ينتمى إلى بكر بن وائل ، نشأ فى البحرين مات أبوه وهو صغير ، ورباه أعمامه ، ومال إلى البطالة وقول الشعر ، وتعرض به لهجاء الناس ، وكان ممن هجاهم عمرو بن هند ، فأوعز إلى عامل له على البحرين ، فقتل طرفة وهو شاب لم تزد سنه على ست وعشرين سنة .

(٢) هو الحارث بن ظليم بن حلزة من بنى بكر ، من شعراء المعلقات ، وقد أنشد معلقته فى حضرة الملك عمرو بن هند . ردا على عمرو بن كلثوم التغلبى ودفاعا عن قومه ، توفى سنة ٥٢ قبل الهجرة ، حوالى سنة ٥٧٠ م .

(٣) أبو الأنبياء ص ١٣٦ .

(٤) الصحراء ص ٣٥ .

(٥) حضارة العرب ص ٥١ .

ريحا صرصرا ، وقوم صالح أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين[1] ، وقوم نوح أرسل عليهم الطوفان يعلو كالجبال ويفور كالتنور .

ويبدو أن الشاعر الجاهلى كانت تستثيره الصور الوحشية من الطبيعة ، فامرؤ القيس مثلا كان يحلو له أن يراقب - وهو على حصانه - عنفوانها ، كان يباكر فى الخروج إلى الطبيعة والطير فى وكناتها : فيعيشها كما هى همجية بدائية ، فيشوى اللحم ويشرب الخمر ، ويغامر مع النساء ويطارد ويصيد ، ويقف أمام مظاهر السيل العنيفة ، ويتابع وصفها وهو فى حالة من الثمل ، تبلغ ذروتها حين يندفع السيل بأعجاز النخل ، وبرءوس السباع ، وبأنابيش العنصل ، كغجرية دخلت فى طراد عنيف مع غجرى وحشى ، ثم ينفرج كل شئ ، وتلقى الطبيعة - أو الغجرية فالاسمان هنا يمكن أن يتبادلا المواقف - بحمولتها ، وتتحول إلى حالة من الرضا والجمال والهدوء ، يعبر عنها امرؤ القيس بهذين البيتين :

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليمانى ذى العياب المحمل
كأن مكاكى الجـــواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل[2]

تلك إذن هى لوحة ثانية يتجاور فيها الجبن والشجاعة ، والخطر والمغامرة ، والظلام والاندفاع ، والموت والرجاء ، والوحشة والأنس ، والطريق والرفيق ، والضعف والجبروت ، والضآلة والعنف ، والتحدى والاستجابة ، والنداء واللقاء ، والوحشية والإغراء ، والسيل والإغراق ، والأمن والخوف ، والتوتر والرضا ، والهياج والهدوء . أنها حالات تتقابل - وغالبا تتباين - والعربى يعيش كل حالة فى عنفوانها ، يتضاءل حتى يصبح حبة خردل فى صحراء ، ويعظم حتى يصير جبلا من تلك الجبال ، التي يشبه بها الشعراء حلماء قومهم[3] .

***

(١) سورة الأعراف آية ٧٨ .

(٢) الغبيط هنا : أكمة قد انخفض وســـطها وارتفع طرفاها . البعاع : الثقل . نزول اليمانى : نزول التاجر اليمانى . العياب : الثياب . المكاء : ضرب من الطير والجمع مكاكى . الجـواء : الوادى . السلاف : أجود الخمر . المفلفل : الذى ألقى فيه الفلفل .

(٣) يقول امرؤ القيس فى معلقته :

كـأن ثبيرا فى عـــرانين وبـــله كبير أنـــاس فى بجـاد مزمل

ثبير : جبل بعينه . عرانين وبله : أوائل المطر . بجاد : كساء مخطط . مزمل : ملفف .

٣ - والمطر يلعب بريشته دوراً كبيرا فى رسم تلك اللوحات ، التى تتجاور فيها الأشياء وتتباين ، إنه يقذف أتون الصحراء بالماء ، فيجرى فوق الرمال ، ويكون الجداول ، وكأنها عروق الحياة « وإذا تجمع عدد من هذه الجداول فإن الماء فيها يكون واديا ، وفى معظم السنة يبدو الوادى كشجة عميقة فى أرض الصحراء غاصة بالصخور ، وقد لا يلاحظ هذا الوادى على الإطلاق ، لولا أن هناك شجيرات من نبات ضئيل ، نامية على طول الوادى ، وهذا النبات الصحراوى الشائك غالبا ما يكون دلالة على وجود أرض ، أكثر رطوبة من المعتاد ، وفى الربيع عندما يكسو هذا النبات الأوراق الخضر ، يبدو الوادى منعشا ولطيفا ، ولكن كثرة الماء قد تجعل المكان خطراً جداً ، فقد يظل جافا كالتراب شهورا ، ثم إذا به يملأ فى بضع دقائق بطوفان من الماء الصاخب ... وقد ينساب الماء فى الوادى إلى حفرة حيث يكون بحيرة صغيرة ، سرعان ما تجف بالبخر ، ثم ينشطر قاع البحيرة المؤقتة ، أو يتشقق إلى أن يغطى سطحه بنقوش معقدة ... وأحيانا يختفى الماء فى واد ، لأنه يصل إلى منطقة تربتها مفككة ، حيث يغوص إلي أسفل ، وذلك المكان بالذات من الصحراء يسمى منخفضا ، وهو أكثر خضرة من باقى الصحراء غالبا ، لأنه يحصل على أكبر قدر من الماء .. وفى بعض الصحارى قد يستمر الماء فى الهبوط ، إلى أن يصل إلى طبقة صلبة من الحجر الجيرى فيتجمع هناك ، مكونا بركة تحت سطح الأرض »[١] .

وبسبب المطر تتكون الواحات ، وتنمو النباتات ، وتزدهر الأعشاب ، والعربى كثير الحركة والترحال بحثا عن الأماكن الخصبة ، التى يجد فيها الكلأ والماء ، وإذا ما وجدهما فإن حاله تصبح أحسن الأحوال ، أو كما يقول الجاحظ « وهم وإن كانوا فى بلاد جدب ، فإنهم أحسن الناس حالا في الخصب ، فلا تظنن إن كل ما يصفون به قدورهم وجفانهم وثريدهم باطل ، وحدثنى الأصمعي قال : سألت المنتجع عن خصب البادية . فقال ربما رأيت الكلب يتخطى الخلاصة وهى له معرضة شبعا »[٢] . ولم لا يتطرفون وقد عانوا الضيق فى فترات وأمكنة معينة ، انها فرجت بعد أن

---

(١) الصحراء ص ٤٥ .

(٢) البخلاء ص ٢٢٣ .

ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وإن الأرض أخيرا تبتسم وتفصح عن وجهها الآخر . يقول ابن المعتز[1] :

والأرض إن قتل الهجير لها ولدا ، أعاش لها الربيع ولد

ويبدو أن الطبيعة فى البلاد الصحراوية ، حين تفرج عن غضبها تصبح سمحة ، ويعقب اكفهرارها رضا ، وتوترها راحة ، وقد ذكر الجغرافيون حالة الجو عقب المطر فقالوا « وثمة شئ طريف عن المطر الذى يسقط على الصحارى ، وهو أنه يتلوه غالبا شمس مشرقة ساطعة ، كما تتلوه عادة قوس قزح ناصعة »[2] . وحين وقف إمرؤ القيس أمام سيل يرقبه بانفعال ، تحول فى النهاية إلى حالة من التطهير النفسى ، وهو يشاهد الطبيعة بعد أن ألقت بحمولتها ، وأفرجت عن غضبها ، قد اكتست حالة من الجمال والنشوى ، تمثلها فرحة الطيور وهى تشدو ثملة .

والقرآن الكريم قد تحدث عن فرحة الأرض باستقبال الغيث ، فكثير من الآيات تذكر بهجة الأرض وكأنها فى حالة عيد ومهرجان ، انها تهتز للمطر وتستقبله ، فى حركة حياة تتحول فيها من حالة الجدب إلى حالة التزين ، بكل زوج بهيج .

تلك هى لوحة ثالثة - وليست أخيرة - تتجاور فيها الصحراء والواحة ، المطر والجفاف ، الجدب والخصب ، الماء والعطش ، الطعام والجوع ، تجدب الأرض فتصير كما قال سلام الكلابى « قاحلة مثل جلد الأجرب ، تصىء حياتها ، ولا يسكت ذيبها ، ولا يقيد راكبها »[3] ، ولكنها قد تخصب فتصير كمكة حين وصفها أصيل الخزاعى فى عام خصب « وقد أحجن ثمامها ، وأمشر سلمها ، وأعذق اذخرها »[4] . والعربى موزع بين كل هذا ، يعيش كل حالة حتى منتهاها ، يفتقر « حتى يشد

---

(١) ولد سنة ٢٤٧ هـ وتوفى سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) الصحراء ص ٤٣ .

(٣) البيان والتبيين ١٢٩/٢ .

(٤) البيان والتبيين ١٢٧/٢ ، والثمام : النبت ، وأحجن الثمام : خرج خوصه ؛ السلم : ضرب من الشجر ، وأمشر السلم : خرج له مشر وهو الاغصان الخضر الرطبة ، الاذخر : الحشيش الأخضر ، وأعذق : ظهرت ثمرته .

على بطنه الحجارة ، وحتى يعتصم بشده معاصم الازار ، وينزع عمامته من رأسه فيشد بها بطنه وانما عمامته تاجه »[1] ، وقد يغتنى حتى يبدد ماله ، ويصبح السرف والتبذير هو معنى الجود « حتى إذا كان الإنسان فى غاية منهما كان عندهم أشد استحقاق لاسم الجود »[2] .

***

وإذا رحنا نستقصى المظاهر التى تتقابل فيها الأشياء فلن تنتهى ، فهى أرض الممكن والشعر ، أرض الواقع بكل هجيره والخيال بكل أسراره ، أرض الوضوح والسر ، أرض القتلة والأنبياء ، النور والظلام ، الليل والنهار ، الأمن والخوف ، الطعام والجوع .

الشىء الواحد لا يوجد ، ولابد من أن يجاوره شىء آخر ، والركون إلى طبيعة واحدة ليست من طبيعة الأشياء ، فالغيم تعقبه شمس ، ودوام الحال من المحال ، وإن مع العسر يسرا ، وعند الصباح يحمد القوم السرى .

ولكن الشيئين يوجدان مستقلين ، الألوان لا تتداخل ، فهى إما أسود أو أبيض ، ويفسر بعض المفسرين قوله تعالى « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[3] فيقول : « هما علمان وحدان بيّنان فلا يمنعكم آذان مؤذن مراء أو قليل العقل من سحوركم ، فانهم يؤذنون بهزيع من الليل طويل ، وقد يرى بياض ما على السحور يقال له الصبح الكاذب ، كانت تسميه العرب ، فلا يمنعكم ذلك من سحوركم ، فان الصبح لاخفاء به ، طريقة معترضة فى الأفق ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الصبح »[4] .

والطريقة هى الخط الممتد فى الشىء يكون ظاهراً باختلاف لون[5] ، والممدوح

---

(١) البخلاء ٢/٩ .

(٢) الهوامل والشوامل ص ٥١ .

(٣) ١٨٧ / البقرة .

(٤) تفسير الطبرى ٣/٥١٠ .

(٥) « والطريقة الخط فى الشىء ، وطرائق البيض خطوطه التى تسمى الحبك .. ويقال للخط الذى يتمد على متن الحمار طريقة ... نعجة مطروقة وهى التى توسم على وسط اذنها من ظاهر فذلك الطرقان ، وانما هو خط أبيض بنار كأنما هو جادة » لسان العرب « طرق » .

من الألوان عندهم هو ، الآدم ، والأشهب ، والأبلق ، والأحجل ، والحور ، وهى كلها تشترك فى أن لونا واضحا يجاور لونا آخر ويتميز عنه ، كما يشق ضوء الفجر الليل ، وكما تشق قطعة الظل بياض الصحراء ، أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، وإذا أردنا أن نلخص كل هذا فى جملة واحدة تكشف كل ما سبق ، فتلك الجملة هى : « تجاور الشيئين مع تمايزهما » .

فالروح العربى يكمن سره فى أن الشيئين يتجاوران ، كما يتجاور الظل مع الضوء ، والحى مع الميت ، والليل مع النهار ، والعذب مع المالح ، وكان القرآن الكريم معجزة فى وقوعه على ذلك السر فى تلك الآيات التى تتكرر على معنى واحد :

يقول تعالى فى سورة الرحمن « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان »[1] .

ويقول فى سورة الفرقان « مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج »[2] .

ويقول فى سورة فاطر « وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج »[3] . ويقول فى سورة النمل « وجعل بين البحرين حاجزا »[4] .

ويفسر الرازى آية النمل فيقول « فالمقصود منه ألا يفسد البحر بالاختلاط ، وأيضا المؤمن فى قلبه بحران : بحر الإيمان والحكمة ، وبحر الطغيان والشهوة ، وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا لكى لا يفسد أحدهما الآخر »[5] ، ويقول عن آية فاطر « قال أكثر المفسرين ، ان المراد فى الآية ضرب المثل فى حق الكفر والايمان أو الكافر والمؤمن ، فالايمان لا يشبه الكفر فى الحسن والنفع ، كما لا يشتبه البحران ، العذب

---

(١) الآيتان ١٩ و ٢٠ .
(٢) الآية ٥٣ .
(٣) الآية ١٢ .
(٤) الآية ٦١ .
(٥) تفسير الرازى ٦/٤٥١ .

الفرات والملح الأجاج »[1] . ويقول الألوسى عن آية الرحمن « والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب يلتقيان ، أى يتجاوران وتتماس سطوحهما لا يفصل بينهما فى مرأى العين ... بينهما برزخ أى حاجز من قدرة الله تعالى .. لا يبغيان أى لا يبغى أحدهما على الآخر ، بالممازجة وابطال الخاصية بالكلية »[2] .

وسواء أكان المراد بالبحرين المتجاورين هما : الايمان والطغيان ، أم الحكمة والشهوة ، أم الكفر والايمان أم الملح والعذب ، فان كل هذا يعنى أن هناك شيئين متجاورين ، وان لكل شيء خاصيته واستقلاله . وهو ما عبرنا عنه بجملة « تجاور الشيئين مع تمايزهما » ، وقلنا انها تلخص الروح العربى .

***

وإذا أردنا رمزا حيا لهذه الجملة ، فاننا نقع عليه في كلمة « النخلة » ، ذلك النبات الصحراوى الذى يتميز به الشرق العربى ، والذى يساهم فى حدود ٧٨٪ من الانتاج العالمى للبلح ، وكانت السعودية أكثر الدول العربية انتاجا للبلح سنة ١٩٦٨ ، وحين نقل العرب النخلة إلى اسبانيا نمت ولكنها لم تثمر[3] ، وذلك لأنها تحتاج إلى بيئة معينة ودرجة حرارة معينة .

وأكاد لا أجد رمزا يعبر عن الروح العربى ، الذى يسمح بتجاور الشيئين - وأحيانا الضدين - مثل هذا النبات الصحراوى ، وقد ذكر الجغرافيون والخبراء أن النخلة لا تعيش الا فى جو جاف ، وان جذور النخلة تحتاج إلى مقدار كبير من الماء « لأن الأشجار لا تجيد ادخار الماء ، وقد يخرج من النخلة الواحدة مقدار من الماء ، قد يصل إلى ٥٢٨ لترا فى اليوم ، عن طريق أوراقها الخضرة العريضة ، فتموت النخلة إن لم تحصل عن طريق جذورها ، على كميات من الماء بانتظام ، ويقول العرب : « ان النخلة يجب أن يكون رأسها فى الشمس ، وأقدامها فى الماء لتنمو وتحمل ثمارا »[4] .

---

(١) تفسير الرازى ٣٤/٧ .
(٢) تفسير الألوسى ، سور الرحمن ، الآية ١٩ .
(٣) راجع كتاب « النخيل » بقلم عبد اللطيف واكد خبير النخيل بمصلحة البساتين .
(٤) الصحراء ص ٧٠ .

فالنخلة اذن هى تجسيد للروح العربى الذى يتجاور فيه الشيتان ، إن رأسها فى الشمس وأقدامها فى الماء ، وأكثر المفسرين[1] على أنها هى الشجرة الطيبة فى قوله تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها »[2] . إنها ترتفع فى السماء وأصلها ثابت فى الأرض ، وإن أوراقها الخضر شديدة الجود بالماء فى جو قاحل جاف ، فهى تجمع بين الأرض والسماء ، والجفاف والماء ، وهى تقف شامخة وسط الصحراء ، تمد الظل وتمنح الأكل ، فتضفى الخطوط الناقصة ، والتى بها يكمل التعبير عن الروح العربى ، إن الظل حينئذ يتجاور مع الحرور ، والأسود مع الأبيض ، والتعب مع الراحة ، والطعام مع الجوع ، والأمن مع الخوف .

ولعل هذا ما يفسر تعلق العرب بها قديما ، فقد كان أهل نجران قبل الإسلام « على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة »[3] ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم نحو عشرين مرة[4] ، فى آيات تدور حول قيمة هذا النبات كنعمة أنعمها الله على المسلمين ، فهى تمدهم بالظل وتمسك عليهم الحياة ، وفى طلعها قنوان دانية[5] ، وإليها لجأت مريم عليها السلام ساعة المخاض ، فأفاء الله عليها الظل والثمار[6] ، وقد جعل الرسول بين العرب والنخلة قرابة فقال ﷺ « نعمت العمة لكم النخلة »[7] ، وشبه بها المسلم فقال : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وأنها مثل المسلم ، فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى ، قال عبد الله (ابن عمر) فوقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة »[8] .

وسنتحدث فى فصل « الأدب » عن العلاقة بين هذا الرمز (النخلة) والصورة

---

(١) تفسير الرازى ٢٤٤/٥.
(٢) ٢٤ - ٢٥ / ابراهيم .
(٣) سيرة ابن هشام ٣٢/١ .
(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم « نخل » .
(٥) انظر : سورة الانعام آية ٩٩ .
(٦) : سورة مريم الآية ٢٥ .
(٧) البيان والتبيين ١٩٥/١ .
(٨) البخارى ١٨/١ وأيضا : لسان العرب « نخل » .

الشعرية . وفى فصل « الفن » سنتحدث عما يمكن أن يقدمه هذا الرمز للفنون التشكيلية بوجه عام .

***

ولعل طبيعة هذا الروح التى تسمح بتجاور الشيئين ، هى التى جعلت بعض المؤلفين يحكمون على العرب بالتناقض ، فهم « اما كرماء مع التبذير ، أو حريصـــون إلى درجة لا تصدق ، وصبورون جدا ، أو ثائرون إلى درجة هيسترية تقريبا ، شجعان إلى حد لا يصدق ، أو هيابون دونما سبب ظاهر . وهذا التناقض لم يكن يقتصر على ذلك ، فهم بطبيعتهم متقشفون ، يستمدون الرضا من بساطة حياتهم المجردة ، وينفرون من النعم التى يعدها الآخرون ضرورية ، ومع ذلك فهم فى المناسبات النادرة التي تسنح لهم ، يأكلون بكثرة ، والبدو يقيمون وزنا للكرامة الإنسانية ، وأكثرهم يفضل أن يشهد رجلا يموت على أن يهان ، ومع أنهم متحفظون أمام الغرباء ، ومعتادون فى المناسبات الرسمية على الجلوس دون حراك صامتين ، فهم شعب ثرثار خفيف الروح »[1] كما قال ثيسيغر . أو يجمعون بين الخير والشر « فهم على ما فى الأضـــداد من غرابة ، يتصـــفون بســـفك الدماء وحقنها ، وباعتقاد الخرافات وردها ، وبالايمان والالحاد »[2] كما قال هيردر . أو أظهر ما فيهم « أنهم جماع الأضداد بالنهب والكرم ، والســـلب والجـــود ، والقسوة والنبل ، وغير ذلك من الصـــفات التى تدعـــو إلى المقت والاعجـــاب فى وقت واحـــد »[3] كما قال ديفرچيه . أو إن هذا المكان الذى يضم العرب يحوى على الجوانب المتناقضة « ففيه تبدو روائع الماضى وآلام الحاضر ، ونداء الأحاسيس الملموسة ومشاعر المطلق ، وفيه تظهر أقصى صور التحريم وأكثر الحوافز اثارة وحماسة ، وقد اختلطت فى بعضها أو تناقضت ، وسار الناس على نهجها باخلاص أو دون اخلاص »[4] كما قال جاك بيرك .

وقد تبدو هـــذه الأقاويل محقة إذا اكتفينا بالظاهر ، ولكن عند فهم طبيعة

---

(١) رمال العرب ص ١٧٥ .
(٢) حضارة العرب ص ٨١ .
(٣) حضارة العرب ص ٨١ .
(٤) العرب ص ٢١ .

العربى فى تلك المرحلة نجد أنها لا تدل على تناقض ، انها تدل على الفطرة والاقتراب من الحيـاة ، التى لا تعرف النظرة الواحدة ، ولا تتجمد عند موقف معين ، انها تنتقل من الليل إلى النهار ، ومن الظلمة إلى الضوء ، ومن الهلال إلى البدر ، والأرض تكون جرزا فتحيا ، والاعصار يصيب الجنة ذات الأكل فتصبح صريما ، والسيل العرم يصيب الجنتين فيبدلهما إلى ذواتى أكل خمط وأثل .

والعربى أمام مظاهر الحياة التى تدور أمامه مصبحا وممسيا ، والتى تجمع بين الخير والشر ، اصبح ذا نظرة مركبة ، ماديا ومثاليا ، يتاجر فى الأسواق ويشرب الخمر ويلعب الميسر والأنصاب والأزلام ويتزوج النساء ، ولكن له مثلا يدافع عنها ، وعرضـا يحميه ، انه يعرف الشهامة والكرم والنخوة ، والحب العفيف ، وينشد الشعر ويتطلع نحو السماء يستكشف أسرارها .

فالعربى جزء من الطبيعة التى حوله ، هو متطرف كما هى متطرفة ، إنه يعنف إلى حد التهور ، ويجود إلى حد التبذير ، إنه يتميز غيظا كجهنم يسمع لها شهيق وهى تفور ، ولكنه يرق كنسمات الجنة التى لا لغو فيها ولا تأثيم ، وتتخذ الفضيلة عنده مظهرا من مظاهر التطرف ، فالجود يرتبط بالحدة[1] ، وهى حالة متوترة تند عن الاعتدال ، قال الجوهرى : « الحدة ما يعترى الإنسان من النزق والغضـب »[2] ، والشـجاع عنده هو البطل المفرط فى الشـجاعة[3] ، والبطل « شجاع تبطل جراحته فلا يكترث لها ولا تبطل نجادته ، وقيل انما سمى بطلا لأنه يبطل العظائم بسيفه فيبهرجها ، وقيل سمى بطلا لأن الأشداء يبطلون عنده ، وقيل هو الذى تبطل عنده دماء الأقران فلا يدرك عنده ثأر »[4] . ان عنترة[5] هو مثال للعربى فى صورته الأولى ، انه يضعف أمام عبلة ويسلمها مقوده ، ولكنه يعنف على « ابنى ضمضم » ويخشى أن يموت قبل أن يثأر منهما .

---

(١) الهوامل والشوامل ص ٥١ .

(٢) لسان العرب « حدد » .

(٣) الهوامل والشوامل ص ٩٩ .

(٤) لسان العرب « بطل » .

(٥) هو عنترة بن شداد العبسى من فرسان العصر الجاهلى ، ومن شعراء المعلقات ، كان يحب ابنة عمه عبلة ، وينشد فيها الشعر العفيف ، ولد حوالى سنة ٥٢٥ م ، أى قبل الهجرة بنحو اثنين وعشرين عاماً .

ان شكسبير[1] كان عبقرية حين استطاع أن ينفذ إلى جوهر العربى ، وأن يكثفه فى شخصية عطيل ، قد يكون لنا عليها تحفظات ، لأنها تصوير للشخصية ، كرد فعل للمحتوى الجغرافى ، وقبل أن يتدخل العنصر البشرى ، انها الشخصية الخام أو المسودة الأولى ، ولكنها تفيدنا فى هذا الفصل الذى يهتم بابراز عنصر البيئة ، ان « عطيل » يحب ويبالغ فى حبه ، ويصور عواطفه بصورة مبالغ فيها كالفارس العربى « فاذا انصرفت عن هواك يوما فهناك تعاودنى الفوضى والظلمات » ، ولكنه ينتقل إلى الضد حين تتسلل إليه الغيرة ، إنه ينفض حبها فى أنفاسه المتصاعدة ، وينادى بآلهة الانتقام أن ترتفع من أعماق جهنم « انظر ياجو ، أعرفت كيف تجرى التيارات القارسة الجامحة من مبعثها فى بحر البنط ، إلى مستقرها فى بحر الظلمات لا يردها الجذر ، بل تنطلق إلى غايتها فى منهج قويم . كذلك عزائمى النضاحة بالدماء ، قد تدافعت إلى الأمام بقوة ، ولن ترجع إلى الوراء ، لن تعود إلى حمى ذلك الغرام الوديع ، بل تستمر فى سيرها ، حتى تفور جميعها فى انتقام عظيم على قدر الاهانة » .

فالعربى - فى معطياته الأولى - سريع الانتقال من حالة إلى حالة ، قد يشرف على الموت ولكن جرعة ماء ترده إلى الحياة ، وقد يحدث أن الشمس تكاد تودى به ، ولكن رداءه الذى ينصبه على عصا يهيىء له الظل وينعشه ، وكذلك قد يكون غاضبا نزقا ، ولكن كلمة ترضيه ، وقد يكون صديقا ، ثم نزوة طارئة تحوله إلى شرس ، انه سهل على العربى أن يصبح كالحياة التى حوله ، مرة تبسم وأخرى تعبس ، وقد كان للنعمان بن المنذر - أحد ملوك العرب - يومان ، يوم نعيم ويوم بؤس[2] ، يبتسم فى يوم نعيمه كما تبسم الدنيا ، فيكافىء أول من يقابله ، ويعبس فى يوم بؤسه كما تعبس الدنيا ، فيبطش بمن يقابله . إن ياجو فى مسرحية

---

(١) ولد « وليم شكسبير » سنة ١٥٦٤ م فى بلدة « ستراتفورد » ، وهى مدينة صغيرة بانجلترا ، وكان أبوه قصابا (جزارا) ، ولم تكن أمه متعلمه ، فلم يستطع أن يتم دراسته ، واضطر وهو فى الثالثة عشرة إلى أن يحترف مهنة أبيه ، ثم رحل إلى لندن وهو فى العشرين من عمره ، فالتحق بالمسرح ، وعهدوا إليه حراسة جياد النظارة ، ثم ارتقى فصار ملقنا ، ثم ممثلا ، ثم مؤلفا ، وظهرت أولى مسرحياته « روميو وجوليت » سنة ١٥٩١م ، فنالت اعجابا شديدا ، ثم توالى نجاحه ، ودعته ملكة انجلترا « اليصابات » ليمثل أمامها روايته التى ألفها عن أبيها « هنرى الرابع » ، ولم يبلغ السابعة والأربعين حتى أتم ستا وثلاثين رواية تمثيلية .

(٢) المحاسن والاضداد ص ٥١ .

شكسبير كان دقيق الملاحظة حين قال عن عطيل « ان هؤلاء المغاربة لمتقلبون فى أهوائهم ، فان الطعام الذى يجده الآن شهيا كالأناناس ، سيصبح فى فمه مرا كالعلقم »[1] .

ولكن الحقيقة أن العربى - في معطياته الأولى أيضا - كان يعيش الحالة التى فيها بصدق ، إن كلمة « امرىء القيس » « اليوم خمر وغداً أمر » لم تصبح مثلاً يجرى على الأفواه ، إلا لأنها صادفت شيئا فى نفوس العرب ، اليوم انتهز الفرصة التى أعيشها واللحظة التى أنا فيها ، ثم ليأت الغد بما يحتويه من توقعات . إن العربى يعيش لحظته فى صدق وشرف ، ولكنه قد ينتقل عنها فيعيش اللحظة الأخرى فى صدق وشرف أيضاً ، مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان وذمه أمام رسول الله ﷺ ، وحين أحس بالضيق فى وجه الرسول ، برر موقفه النفسى بما يدفع عنه تهمه التناقض « يا رسول الله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكنى رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أسوأ ما علمت » وقد فهم الرسول هذا الموقف فلم يتهمه بسوء الخلق أو بالنفاق أو بالتناقض ، لقد أدرك بلماحيته الصدق فى الحالتين ، وأن الشاعر يصدر عن الطبيعة والبراءة ، فقال : « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة »[2] .

***

إن العربى هنا ليس جماع أضداد كما قيل . وإلا لأمكن أن نطلق هذا الوصف على الطفل ، الذى يستجيب للحياة استجابات مباشرة ينتقل من حالة إلى حالة مع كل معطى جديد ، فيبسم للحياة بعد أن كان يعبس ، إنه فنان يرى فى كل شىء جديداً ، ولم يفقد بعد حاسة الدهشة أمام المرئيات .

ومن هنا كان جهاز العربى جهاز فنان بالدرجة الأولي ، وكان الشعر يجرى على ألسنتهم حتى تحدث به الجان والطفل والعجوز ، وكان الفن - أو الشعر - هو مصدر معرفتهم وطريق اكتشافهم للعالم ، ان العلم عندهم شعور وحدس ، وسمى الشاعر شاعرا « لأنه يشعر ما لا يشعر غيره أى يعلم ... وفى الحديث قال رسول

---

(١) عطيل ص ٤١ .

(٢) المحاسن والاضداد ص ١٥ .

الله ﷺ : إن من الشعر لحكمة ، فاذا البس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه فى الشعر فإنه عربى »[1] . وتظرتهم إلى الشاعر هى نظرتهم إلى الشخص الذى يكشف ذوق الأمة ومعارفها فى آن واحـد ، أو أنه يكشف معارفها حين يكشف ذوقها ، لأن معرفة العرب فى ذلك الحين تأتى عن طريق الذوق والاحساس .

ومن هنا كانت تلك المعرفة متجددة ، تقرأ المعلقات فتحس باللوحات تتوالى على سمعك ، ان الشاعر يركب فرسا أو ناقة ، ويصف ما يمر عليه ، انه ينتقل من منظر إلى منظر ، لا رتابة ولا ملال ، وانما هو التغير المستمر ، فامرؤ القيس ينتقل من الحديث عن ديار الأحبة والآثار التى خلفوها ، إلى الحديث عن دارة جلجل ، ومغامراته النسائية فى قلب الصحراء ، والأخطار التى يتعرض لها ، ليل الصحراء الثقيل ونجومه التى لا تزول ، والوادى الذى يعوى به الذئب ، وقطيع من البقر الوحش ، والبرق الذى يضيء ، والسيل الذى يهدم كل شيء ، وحالة الطبيعة بعد السيل ، وقد اكتست الأرض بحمولته ، وتغنت الطيور فرحة .

لا يعرف الصحراء من يظن أنها رتيبة متكررة ، ان اللوحات المختلفة تتجاور فيها ، ان القرآن الكريم يكشف عن ذلك فيقول : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[2] ، ويشرح الرازى[3] هذا التجاور فيقول « وتقريره من وجهين : الأول أنه حصل قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهى مع ذلك متجاورة ، فبعضها تكون سبخة ، وبعضها تكون رخوة ، وبعضها تكون صلبة ، وبعضها تكون منبتة ، وبعضها تكون حجرية أو زملية ، وبعضها يكون طينا لزجا ، ثم انها متجاورة ... والثانى أن القطعة الواحدة من الأرض تسقى بماء واحد ، فيكون تأثير الشمس فيها متساويا ، ثم ان الثمار تكون مختلفة فى الطعم واللون والطبيعة والخاصية ، حتى انك قد تأخذ عنقودا من العنب ، فتكون جميع حباته حلوة نضجة ، إلا حبة واحدة فانها بقيت حامضة يابسة .. بل نقول ها هنا ما أعجب منه ، وهو أنه يوجد فى بعض أنواع

---

(١) لسان العرب (شعر) .

(٢) سورة الرعد الآية ٤ .

(٣) هو الامام فخر الدين الرازى المفسر الشهير ، وهو قائد الاتجاه الذى خلط علم الكلام بالتفسير ، ولد سنة ٥٤٣ هـ وتوفى سنة ٦٠٦ .

الورد ما يكون أحـد وجهيه فى غاية الحمرة ، والوجـه الثانى فى غـاية السواد »[1] .

ان الصحراء تبدو للمستعجل المنبت متساوية ، وأن أماكنها لا تتغير ، ولكن عند التريث تتبدى هنالك فروق فى غاية الدقة ، وقد لاحظ ذلك كثير من الجغرافيين والمستكشفين ، نقرأ وصف ابن بطوطة[2] للطريق التى سلكها من المدينة إلى مكة يريد الحجة الأولى ، فنرى المناظر تتغير وتتجدد ، انها بدر حيث حدائق النخل متصلة ، وحيث عين فوارة يحرى ماؤها ، وها هو جبل الرحمة الذى نزلت به الملائكة ، وبازائه جبل الطبول ، حيث يسمع أهل البلدة مثل أصوات الطبول كل ليلة جمعة ، وبين بدر والصفراء نحو بريد ، في واد بين جبال مطروقة العيون ، وها هى الصحراء المعروفة بقاع البزواء « وهى برية يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل » ، وفى منتهاها « وادى رابغ » « يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا » ، وهكذا يصف الأماكن ، وهو ينتقل من مكان إلى مكان ، من صحراء إلى واد ، ومن رمل إلى نخل ، حتى يصل إلى مكة بعد مشقة « وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها ، فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا ، كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا ، لأمر إلهى وصنع ربانى » .

وقد أحس ذلك من المعاصرين كل من رحل إلى الصحراء ، فتحدثوا عن اغرائها ، نقرأ رحلة « ثيسيغر » عبر الربع الخالى ، فنجده يصف المناظر الصحراوية المتجددة والتى استولت على لبه ، هنا النباتات المعروفة « بأشواك الجمال » ، تلقى شبكة خفيفة من الظلال على الصخور الصلبة ، وهنا أشجار الأحراش مضفرة بالياسمين والنباتات المتسلقة ، وهنا عليقة صغيرة خضراء لامعة ، وهنا النبات المسمى « رمرام » ، وهو ينمو على الرمـال الصـلبة فى المنخفضات ، وهنا نبات « الخلفاء » ذو الشراريب ، وهنا نبات « العبل » ذو الأغصان الرفيعة المنكسرة ، وهنا اليرقان والسعدان .. وهنا أيضا الفئران تغنى والقبرات تطير والصراصير السود الصغيرة تزحف بجد فوق الرمال ، وهنا آثان غزال ، وها هو صـوت غناء الرمل يطن فوق الرءوس والأعراب يصـفونه بالزئير ، وها هى رمال أم السموم

---

(١) تفسير الرازى ١٨٦/٥ .

(٢) مهذب رحلة ابن بطوطة ١٠١/١ .

المتحركة التى ابتلعت فى العام الماضى قطيعا من الماعز ، وهناك طير ميت على الأرض ، أو أرنب برى ، أو عش عصفور ، أو برعم صغير يطل من تحت التراب ، وها هى المياه تسيل من نبع فى الصخر ، أو نبع يجرى تحت صخرة منخفضة ، أو ثقب ماء فى رمال متحركة صلبة ، ثم ها هو ضبع مخطط ، أو وعول بيض على سهل قاتم ، وها هى قمم كلسية ، وتلال من الرمال البيض ، وامتدادات من الحصى منقطة ببقع من الحشيش والنبات المتجعد ، وها هى « صحراء غنيم » حيث الرمل مخطط بالتموجات الصغيرة ، ذات القمم المؤلفة من حبيبات الرمل الثقيلة الداكنة ، بينما التجويفات مؤلفة من الحبات الفاتحة اللون ، وها هى قرية نصفها مدفون فى الرمال ، وقد كانت قبل سنوات مأهولة بالسكان .

***

وهكذا يشاهد البدوى المناظر تتجدد كل حين ، ولكنه تجدد محدود ، وتنوع داخل البساطة ، انه تغير داخل الصحراء لا تلحظه الا العين النفاذة ، كالقصيدة العربية تبدو للغريب رتيبة وذات تفاعيل متكررة ، ولكن الأذن المدققة والمخالطة تكتشف فيها جمالا . ان التجدد الذى يعيشه العربى فى صحرائه لا يصل إلى حد التعقيد والاختلاط وتداخل الأشياء ، إنه لا يعرف من الألوان إلا ألوانا محدودة ، ولكن اللون الواحد يتغير أمامه ، بحسب عوامل التعرية والعواصف وكمية المطر وأشعة الشمس ، ان القرآن الكريم يتحدث عن ألوان الجبال فيقول : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود »[1] ، وان الرازى يكشف حقيقة التغير الذى يتناوب اللون الواحد فيقول : « الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون ، أى بيض مختلف ألوانها ، وحمر مختلف ألوانها ، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص ، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص ، وكذلك الأحمر »[2] .

فالبساطة قرينة التغيير ، وعدم التداخل شرط التجدد ، ان شيئين يملآن على العربى حياته وحواسه ، النهار المشرق الواضح الذى يملأ البسيطة ويحيلها إلى بياض ساطع ، والليل البهيم الذى يرخى سدوله ويلقى بظلمات بعضها فوق بعض .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٧ .

(٢) تفسير الرازى ٤١/٧ .

انه النور ، وانها الظلمة ، ولكل منهما حدوده فلا يبغيان ، ان العربى لا يستطيع أن يخلط بينهما ، لأنهما متتباينان أشد التباين ، ولكن تباينهما يعطى جمالا . ان القرآن الكريم يعطينا صورا أخاذة حين يقارن بين هـذين اللونين ، ويجمع بينهما « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون »[1] ، « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق»[2] ، « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا»[3] فان المجاورة والمقارنة هنا بين النار والظلمات ، والبرق والظلام ، والشمس والظل ، تعطى جمالا واضحا لا يقبل المواربة ، يقول الرازى عن الآية الأولى « فأما تشبيه الايمان بالنور والكفر بالظلمة ، فهو فى كتاب الله تعالى كثير ، والوجه فيه أن النور قد بلغ النهاية فى كونه هاديا إلى المحجة وإلى طريق المنفعة وازالة الحيرة ، وهذا حال الايمان فى باب الدين فيه ما هو النهاية فى المنفعة وازالة الحيرة »[4] ، ويقول عن الآية الأخيرة : « الا أنه اذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظل ، فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودا وماهية ، لان الأشياء انما تعرف بأضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف الضوء »[5] .

انما تعرف الأشياء بأضدادها ، والنور يزيل الحيرة ، تلك هى قسمات شخصية العربى ، إنه صريح لا يعرف الالتواء ، وسليم الطوية لا يعرف الاعوجاج ، فهى إما ليل أو نهار ، أبيض أو أسود ، وهذا اما صديق أو عدو ، خير أو شر ، أما أنهما يختلطان فى وحدة أو يندغمان فى شىء ، فتلك حـالة لا يعرفها العربى ، لا يعرف « الليل - النهار » أو « الأبيض - الأسود » حين يختلطان ، فى شىء تضيع فيه خصائص كل منهما ، ولا يعرف « الصديق - العدو » أو « الخير - الشر » ، حين يختلطان ويمتزجان ، جلس رسول الله ﷺ مرة على المنبر وقال لأصحابه « انى أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٩ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٤٥ .
(٤) تفسير الرازى ٢٠٥/١ .
(٥) تفسير الرازى ٣٧٧/٦ .

فتعجب أحد الحاضرين وقال : « أو يأتى الخير بالشر يا رسول الله ؟ » فسكت الرسول فترة وكأنه ينزل عليه ، ثم أفاق يمسح عنه الرحضاء واستفسر عن السائل وكأنه يحمد له هذا السؤال ، ونفى أن يأتى الخير بالشر[1] ، وأشار إلى فكرة الوسطية أو العدالة ، التى سنتحدث عنها فى فصل « التاريخ » .

حقا هو يعرف الليل والنهار ، أو الخير والشر ، حين يتجاوران دون أن يفقد كل منهما خاصيته ، أليس يرى أمامه الليل يسلخ منه النهار ، والنهار يولج فى الليل ، والأرض تحيا بعد موتها ، يقول الغزالى متحدثا عن التقابل بين الأشياء « فالوسوسة فى مقابلة الالهام ، والشيطان فى مقابلة الملك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان ، وإليه الاشارة بقوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » « فان الموجودات كلها متقابلة مزدوجة ، إلا الله فانه فرد لا مقابل له ، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها ، فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك » إلى أن يقول : « فالتطارد بين ذكر الله ووسوسة الشيطان ، كالتطارد بين النور والظلام ، بين الليل والنهار »[2] .

مرة أخرى نعود إلى التعبير الذى آثرناه سابقا ، وقلنا انه مفتاح الشخصية العربية ، وهو « تجاور الشيئين مع تمايزهما » ، ومرة أخرى نقف عند رمز « النخلة » فهو رمز لطبيعة تسمح بتجاور الضدين ، دون أن يبغى ضد ، ان أصلها ثابت ممتد فى الماء ، وفروعها فى السماء ممتدة فى الجفاف ، وإن ظلها ممدود على الأرض ، فى بقعة تحيط بها الشمس ، وان قنوانها دانية فى صحراء مجدبة .

***

وقد هيأت تلك الطبيعة لما يمكن أن نسميه بصفة « التوقع » ، فالعربى لا يركن إلى القوالب الثابتة ، ولا إلى التصورات الدائمة ، انه يتوقع أن يفاجئه فى ظلمة الليل عدو أو وحش ، أو يتوقع أن يجد ظل نخلة تمسك عليه الحياة ، ولذلك فهو يعيش فى حذر ، ويعيش فى أمل ، انه يشاهد المظاهر الطبيعية تتبدل ، قد

(١) لسان العرب « حبط » وأسنده إلى أبى سعيد الخدرى .
(٢) الاحياء ١٣٨٨/٢ .

تهب ريح صرصر عاتية لا تبقى على شيء ، وقد يندفع سيل عرم ، وقد تقذف الأرض بالحمم .

والشعر الجاهلى ملىء بالتوقعات ، التى لم تكن فى الحسبان ، فهذا سرب من النعاج يرعى فى اطمئنان وكأنه « عذارى دوار » ، وفجأة يدهمه الخطر ، يقول امرؤ القيس فى المعلقة :

فعن لنا سـرب كأن نعاجه ... عـذارى دوار فى ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه ... بجيد معم فى العشيرة مخول
فألحقنا بالهـاديات ودونـه ... جـواحرها فى صـرة لم تزيل[1]

وهذه بقرة وحشية تبحث عن ابنها ، ثم لا تدرى ماذا يخبىء الغيب ، يقول لبيد[2] فى المعلقة :

فتوجست رز الأنيس فراعـها ... عن ظهر غيب والأنيس سقامها
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه ... مولى المخـافة خلفها وأمامها[3]

وهذه نعامة يفزعها القناص وقد دنا المساء فتولى الأدبار ، يقول الحارث بن حلزة فى المعلقة :

آنست نبأة وأفزعها القناص عصرا وقد دنا الامسـاء
فترى خلفها من الرجـع والوقع منينا كأنه اهبـاء
وطراقا من خلفهم طراق ساقطات ألوت بها الصحراء[4]

---

(١) العذراء : البكر التى لم تمس . الدوار : حجر كان أهل الجاهلية ينصبونه ، ويطوفون حوله تشبيها بالطائفين حول الكعبة ، إذا نأوا عن الكعبة . ملاء : جمع ملاءة . المذيل : الذى أطيل ذيله وأرخى . الجزع : الخرز اليمانى . المعم : الكريم الأعمام . المخول : الكريم الأخوال . الهاديات : الأوائل . الحواجر : المتخلفات . الصرة : الجماعة . لم تزيل : لم تفرق .

(٢) هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرى . من هوازن قيس ، ومن شعراء المعلقات ، ولد نحو سنة ٥٣٠م ، وتوفى سنة ٦٦٠م (٤٠ هـ) وفى أواخر حياته أدرك الاسلام فأسلم .

(٣) الرز : الصوت الخفى . الفرج : موضع المخافة . وقال ثعلب : ان المولى فى هذا البيت بمعنى الأولى بالشىء .

(٤) النبأة : الصوت الخفى يسمعه الانسان أو يتخيله . المنين : الغبار الدقيق . الاهباء : جمع هباء والهباء : اثارته . الطراق : يريد بها أطباق نعلها . ألوى بالشىء : أفناه وابطله .

وهذا مرقش يرحل وراء الحبيبة ولا يدرى أن الموت ينتظره ، يقول طرفة :

ترحـــل فى أرض العـــراق مرقش　　على طـرب تهوى سراعا رواحله
إلى السرو أرض ساقه نحوها الهوى　　ولم يدر أن الموت بالسرو غائله[1]

وفى الوقت نفسه فان كل شىء يمكن أن يتغير ، لم لا يرحل العربى عن هذا المكـان الجدب ، فربما يصـــادفه مكان خصب : ولم لا يتوقع أن ينهمر الغيث فيحيى الأرض بعد موتها ، ولم لا يكون هذا الغيم بشير خير « وعسى أن تكرهوا شـــيئا وهـو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شـــر لـكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[2] .

نعم ، الله يعلم وأنتم لا تعلمون ، هكذا غرست صفة التوقع عند العربى ، استعدادا للايمان بوجود قوة أخرى ، تتدخل فتغير كل شىء ، وتقلب تخطيطه رأسا على عقب ، وهذه القوة لا تخضع لمنطقه ولا تسير على هواه ، قد ترسل عليه سيلا أو غيثا ، عاصفة أو نسيما ، ظلمات أو برقا ، حجارة أو منا ، عشبا أو خضـرا[3] ، إنها قوة أكبر منه ومن كل احتمالاته . ومن هنا لم يكن عبثا أن الصحراء كانت أرض الديانات السماوية ، وأن كثيرا من الملحدين قد اكتشفوا وجود الله فى تلك البقعة[4] .

إن وصف السيل والأمطار والرياح الشديدة فى الشعر الجاهلي ، يكاد يكون رمزا لتلك القوة الكبرى . ان سيل امرىء القيس يسح الماء حول الجبال ، ويقتلع الأشجار ، ويطارد الوعول ، ويسقط النخيل ، ويهدم البيوت ، ويغرق السباع ، يقـــول :

فأضحى يســـح الماء حول كُتيفه　　يكب على الأذقـان دوح الكنهبل
ومر عـــلى القنـــان من نفيانه　　فأنزل منه العصـــم من كل منزل

---

(١) ديوان طرفة ص ١٢٨ . السرو : أرض معروفة فى بلاد حمير .
(٢) سورة البقرة / آية ١٢٦ .
(٣) « الخضر : ليس من أحرار البقول التى تستكثر منها الماشية فتهلكه أكلا ولكنه من الجنبة التى ترعاها بعد هيج العشب ويبسه . لسان العرب (حبط) .
(٤) كنت طبيبة فى اليمن ص ٢٤٥ .

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما الا مشـــيدا بجندل
وكأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل[1]

وسيل طرفة يندفع ويجتاح الضباب ويدحرجها مع الغثاء الكثير :

وضباب ســـفر الماء بهـــا غرقت أولاجها غير السدد
فهى موتى لعب الماء بهـــا فى غثاء ساقه السيل عدد[2]

والرياح الشديدة والأمطار الكثيرة تشبه - عنـد طرفة - الزمـان الذى لا دوام لـه :

أربت بها ناجة تزدهى الحصا وأسحم وكاف العشى هطول
فغيرن آيات الديار مع البلى وليس على ريب الزمان كفيل[3]

والفرس تتحول - عنده أيضا - إلي قوة خارقة ، انها كالريح المندفعة يهاجم بها البقر الوحشى ، فلا يجد عنها مفرا ، يقول :

حملت بـزى فـوق عيرانة مدمجة ذات جراء سـبوح
مرفوعها زول وموضـوعها كمر غيث لجب وسط ريح
تثعب بالفارس ثعبا كمـا يثعب بالقرقر ماء النصيح
هجت بها سرب صـوار كما سل بنو القين سـيوفا تلوح[4]

***

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة والجمع دوح . الكنهبل : ضرب من شجرة البادية . القنان : اسم جبل لبنى أسد . النفيان : ما يتطاير . العصم : جمع أعصم وهو الذى فى احدى يديه بياض من الاوعال وغيرها . تيماء : قرية في بلاد العرب . الاطم : القصر . الانابيش : أصول النبت ، سميت بذلك لانه ينبش عنها واحدتها أنبوشة ، العنصل : البصل البرى .

(٢) ديوان طرفة ص ٢٨ الضباب : جمع ضب وهو حيوان معروف . سفر الماء بها : أخرجها من حجراتها . أولاجها : جمع ولجة وهى كهف تستتر فيه المارة من مطر وغيره . السدد : أفواه الحجرات .

(٣) ديوان طرفة ص ١١٧ . أربت بها : لزمتها واستمرت معها والضمير يعود إلى ديار الحبيبة . ناجة : ريح شديدة المر سريعة . اسحم : سحاب أسود لكثرة مائه . وكاف : كثير القطر .

(٤) ديوان طرفة ص ١٧٠ . بزى : سلاحى وثيابى . عيرانة : ناقة صلبة وانما يعنى هنا فرسا . مدمجة : مجتمعة الخلق . جراء : جرى . مرفوعها : رفعها . زول : نهوض . موضوعها : وضعها أى سرعتها . لجب . كثير الصوت . تثعب : تتدفق فى سيرها . القرقر : أرض مطمئنة لينة . الصوار : البقر الوحشى . القين : الحداد .

لقد كان احساس الجاهلى بالقدر عنيفا ، ولكنه كان غامضا لم يعرف بعد طريقه ، ولم يتبلور فى شىء محدد ، فمن هنا كان رد الفعل هو الاندفاع نحو اللذات ، وانتهاب ساعات الحياة قبل أن تضيع ، ان طرفة خير من يوضح ذلك ، فقد كان احساسه بالقدر عارما ، وكان يعرف أنه لا يستطيع دفع منيته ، وأن الموت يعتام الكرام ، وأن العيش كمز ناقص كل ليلة ، وان مصيره مرتبط بحبل تمسكه يد مجهولة .

نعم ، إنها يد مجهولة ، وإن الشاعر الجاهلى لم يعرف طريقه بعد ، ومن هنا دعا طرفة إلى شرب الخمر ، وركوب الخيل ، ومعاشرة النساء ، فتلك اللذات الثلاث هى التى يعيش الفتى من أجلها ، ولولاها لما حفل بالموت .

إن العصر الجاهلى كان عصر الاحساس الغامض الذى لما يتبلور بعد ، إنه يمثل تلك الفترة التى تسبق الأحداث التاريخية الخطيرة ، وتنتظر من يبلور الأحاسيس ، ويحدد الطريق .

ويظهر الإسلام ويوجه العرب نحو القوة المطلقة ، حقا إن السيل يمكن أن يجتاح كل شىء ، وإن الأشجار يمكن أن تسقط ، وإن البيوت يمكن أن تهدم ، وأن السباع والضباب يمكن أن تغرق . ولكن كل هذا لم يعد مجرد ظواهر ، يقف العربى أمامها متأملا حائرا ، يحس بها بطريقة غامضة . بل انها تشير إلى المطق الثابت ، الذى خلق تلك الظواهر ، ويستطيع أن يغيرها ، أو يمحوها .

وهنا يبدأ التاريخ مسيرته ، ويبعد عن عنصر الطبيعة والجاهلية ، ان البكارة الأولى لن تدوم ، والطفل قد بدأ ينمو ، وقد يصبح شابا ، وقد يتحطم أمام مؤامرات « ياجو »[1] .

اننا على أى حال فى قلب التاريخ بكل حسناته ... وبكل مساوئه أيضا .

---

(١) احدى شخصيات مسرحية « عطيل » ، ويبدو أنه انجليزى الجنسية ، لأنه يظهر تعاطفا مع الانجليز فى أكثر من موضوع من المسرحية ، وقد كان ضابطا بالجيش الذى يرأسه عطيل ، وهو يمثل المكر السيء الذى كان يخشاه عطيل ، فقد استطاع بمؤامراته ودسائسه أن يثير الغيرة فى قلب عطيل حتى حطمته ، وأسلوب ياجو عقلانى يميل إلى الاستنتاجات ، ويبحث عن المصلحة والمنفعة .